[٧]

شراكة الأقليات مع الاستغلال والاستبداد

لقد قال المستشرق الألمانى الحجة «آدم متز» [١٨٦٩ - ١٩١٧م]:

«لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»[١].

وهنا يبرز السؤال:

- من الذى جعل أبناء الأقليات النصرانية يحكمون بلاد الإسلام - ذات الأغلبيات المسلمة- بعد أن كانوا محرومين من ذلك طوال القرون العشرة التى حكم فيها الإغريق والرومان الشرق، قبل الإسلام والفتوحات الإسلامية؟؟..

إننا سنلتمس الإجابة على هذا السؤال عند المؤرخ القبطى يعقوب نخلة روفيلة [١٨٤٧ - ١٩٠٥م] الذى قال إن عمرو بن العاص [٥٠ق.هـ - ٤٣هـ ٥٧٤ - ٦٦٤م] والفتح الإسلامي هو الذى أشرك النصارى فى حكم البلاد، بعد أن حُرموا من ذلك طوال حكم الرومان.

لقد شهد على هذه الحقيقة يعقوب نخلة روفيلة - فى كتابه [تاريخ الأمة القبطية] - عندما قال:

«.. واستعان عمرو على تنظيم البلاد بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالى، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلا منها حاكم قبطى ينظر فى قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوى نزاهة واستقامة، وعين نوابا من القبط، ومنحهم حق التداخل فى القضايا المختصة بالأقباط، والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية. وكانوا بذلك فى نوع من الحرية والاستقلال المدنى. وهى ميزة كانوا قد حُرموا منها فى أيام الدولة الرومانية»[٢].

---

(١) آدم متز [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] جـ١ ص١٠٥.

(٢) يعقوب نخلة روفيلة [تاريخ الأمة القبطية] ص ٥٦.

إذن، هو التحرير الإسلامى - بالفتوحات الإسلامية- الذى جعل إدارة البلاد - فى ظل السلطة الإسلامية - بين النصارى من أبناء هذه البلاد.

ولقد استمرت إدارة البلاد - المالية.. والإدارية.. والكتابة فى الدواوين - فى ولايات الدولة الإسلامية وأقاليمها، بيد هؤلاء النصارى حتى بعد أن أصبحوا أقلية، عندما تحولت أغلبية السكان إلى الإسلام.. وظلت لغة الإدارة وسجلات الجبايات والأموال والخراج هى اللغة القديمة -الرومية- التى يجيدها أبناء هذه الأقليات.. وعندما انتشرت العربية فى ألسنة السكان -مع انتشار الإسلام- وجرى تعريب دواوين المال والإدارة والعملة فى الدولة الإسلامية، على عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان [٢٦ - ٨٦ هـ ٦٤٦ - ٧٠٥م] كان أبناء هذه الأقليات النصرانية، الذين يديرون هذه الدواوين قد بادروا إلى تعلم العربية -مع بقائهم على نصرانيتهم- فظلت إدارة البلاد بأيديهم، حتى بعد تعريب السجلات والمكاتبات.. أى ظلوا - كما قال «آدم متز» - «يحكمون بلاد الإسلام»!...

●●●

لكن هؤلاء الذين ظلوا - منذ الفتح الإسلامى- قابضين على إدارة البلاد - المالية.. والإدارية - لم يمنحوا ولاءهم للأمة والجماهير، ولم يكونوا أمناء على هذه الأمانة التى وضعت فى أيديهم بعد الفتح والتحرير الإسلامى، الذى أنقذ دينهم وحرر وطنهم من قهر الرومان.. وإنما منحوا ولاءهم الظاهر لكثير من الحكام الظلمة الذين تعاقبوا على حكم البلاد، يستنزفون الجماهير المسلمة ويفقرونها لحساب هؤلاء الحكام الظلمة، ويشتركون معهم فى جمع الثروات الطائلة وحيازة الإقطاعات الواسعة.. فكانوا شركاء للحكام الظلمة فى الثراء الفاحش على حساب جماهير الفقراء المسلمين..

وكثيرا ما كانوا يحابون أبناء طوائفهم النصرانية إلى حد استفزاز مشاعر الجماهير المسلمة، الأمر الذى أحدث كثيرا من ردود الأفعال الجماهيرية الغاضبة، التى سلكت طريق العنف والهبات والانتفاضات ضد هذه المظالم التى مارسها هؤلاء الأعوان الظلمة للحكام المستبدين!..

ولقد أعلن عن هذه الحقيقة -الاجتماعية.. التاريخية- المؤرخ وعالم الاجتماع اللبنانى «جورج قرم» عند رصده واستقصائه لأسباب التوتر الدينى والطائفى فى التاريخ الإسلامى - فقال:

«.. بل إن كثيرا ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامى، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح، سببا فى نشوب قلاقل طائفية.. فعلاوة على غلو الموظفين الذميين فى الابتزاز، وفى مراعاتهم وتحيزهم لأبناء دينهم إلى حد الصفاقة، كثيرا ما كانت تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة»(١).

إذن، كان أبناء الأقليات النصرانية يحكمون بلاد الإسلام، لكن لا لحساب الأمة والجماهير، وإنما لحسابهم ولحساب الحكام الظلمة، يستنزفون دماء الفقراء المسلمين، ليغتنى الحكام، وليغتنوا هم أيضا.. وعندما كان ثراؤهم الفاحش، وصلفهم الإدارى، وابتزازهم المالى، واستفزازاتهم الطائفية الفجة، تستفز مشاعر الجماهير الفقيرة فتنتفض ضد هذه المظالم، موجهة غضبها وعنفها لأبناء هذه الأقليات، كان الحكام الظلمة ينتهزون الفرصة لتحقيق المصالح والمكاسب المزدوجة:

١- يبطشون بالعامة، معلقين الكثيرين منهم على أعواد المشانق لإرهابهم..

٢- ويصادرون -فى ذات الوقت- الثروات الفاحشة التى جمعها أبناء هذه الأقليات، وذلك تهدئة لخواطر العامة وتسكينا لمشاعر الجماهير!..

ثم، سرعان ما تعود القصة إلى التجسد فى أرض الواقع من جديد!..

أقليات تتحكم فى الجباية والإدارة، مقسِّمة ثروات البلاد بينها وبين الحكام.. وحكام يستخدمون هذه الأقليات سياطا يلهبون بها ظهور العامة والجماهير.. مستغلين عداء هذه الأقليات لهذه الجماهير!..

حتى إذا ما نشبت الفتن، ووقعت الواقعة، بطش الحكام بالجماهير المسلمة الغاضبة، وصادروا الثروات الفاحشة التى جمعها واكتنزها أبناء هذه الأقليات!..

---

(١) جورج قرم [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة] ص٢٢٤.

نعم.. لقد ساد فى التاريخ - ولا يزال سائدا- هذا القانون:

عندما ما لا تكون شرعية الحاكم مستمدة من رضا الأمة وأغلبية السكان، فإن هذا الحاكم يعتمد -فى الأساس- على أبناء الأقليات.. الذين يتحولون إلى مصاصى دماء للجماهير، فى سبيل الشراكة التى يحققونها مع الحكام الظلمة غير الشرعيين..

ولقد وعى الغزاة لديار الإسلام هذا القانون، فكان اعتمادهم على أبناء هذه الأقليات بمثابة القواعد التى يؤسسون عليها سلطان الغزو وسلطات الاستغلال..

●●●

وإذا كانت وقائع هذا التاريخ - تاريخ استعانة الحكام الظلمة بأبناء الأقليات.. وشراكة وجهاء وأثرياء هذه الأقليات مع هؤلاء الحكام الظلمة -.. إذا كانت وقائع هذا التاريخ من الكثرة بحيث تحتاج إلى دراسة متخصصة وموسعة.. فإننا سنضرب - هنا - بعض الأمثلة على سيادة هذا القانون فى الكثير من فترات هذا التاريخ..

● ففى ظل حكم الدولة الفاطمية [٢٩٧ - ٥٦٧هـ ٩٠٩-١١٧١م] - التى كانت شيعية إسماعيلية باطنية، مغرقة فى الغلو المذهبى - ظلت الأمة على انتمائها لمذهب أهل السنة والجماعة، فافتقرت الدولة والسلطة إلى الشرعية المستمدة من التوافق مع جماهير المحكومين، فكان أن لجأت إلى أبناء الأقليات - من النصارى واليهود - تتخذ منهم قواعد لسلطانها، وأركانا لسلطاتها، وأدوات لاستنزاف الجماهير، وآليات لإخضاعها.. فبالجند الأجنبى -المجلوب مع الخلفاء والحكام الفاطميين- وبأبناء الأقليات يستبد الفاطميون بحكم البلاد..

لقد اتخذ الخليفة الفاطمى العزيز بالله [٣٤٤ - ٣٨٦هـ ٩٥٥ - ٩٩٦م] - الذى كان متزوجا من زوجة مسيحية ذات سلطان طاغ فى قصر الخلافة - اتخذ وزيرا مسيحيا يحكم به مصر هو «عيسى بن نسطورس».. كما اتخذ له وزيرا يهوديا يحكم به بلاد الشام، هو «منشا إبراهيم القزاز»..

ولقد عبرت جماهير الأمة عن غضبها من هذه الشراكة الغريبة عن روح الأمة وفكريتها، والمعادية لمصالحها، فكتبوا «منشورا» إلى هذا الخليفة قالوا له فيه:

«بالذى أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلمين بك، إلاّ كشفت ظلامتى»؟!

فما كان من الخليفة العزيز إلا أن طبق ذلك القانون كى يهدئ غضب الجماهير.. فصادر من الوزير عيسى بن نسطورس ٣٠٠,٠٠٠ دينار.. وصادر من الوزير اليهودى منشا «شيئا كثيرا»[١] بتعبير المؤرخين لذلك التاريخ..

ولقد ظلت هذه «مُنّة فاطمية» متبعة.. فغير هذين الوزيرين - المسيحى واليهودى - تولى الوزارة -فى العهد الفاطمى- من المسيحيين - «أبو العلاء فهد ابن إبراهيم» [٣٩٠هـ ١٠٠٠م]- الذى لقب «بالرئيس» - و«زرعة بن عيسى ابن نسطورس» [٤٠٣هـ ١٠١٢م]- الذى تولى النظر فى شئون الدولة وسفارتها وسياستها الخارجية - ولقد لقب «بالشافى»-.. و«صاعد بن عيسى بن نسطورس» [٤٠٩هـ ١٠٨١م]- الذى لقب «بقسيم الخلافة»!.. و«أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى» [٤٣٦ - ٤٣٩هـ ١٠٤٤ - ١٠٤٧م] - وهو من أصل يهودى.. و«الحسن بن أبى سعد إبراهيم بن سهل التسترى» الذى تولى الوزارة [٤٥٦هـ - ١٠٦٣م] - وهو من أصل يهودى - و«ابن زنبور، أبو سعد منصور بن سعدون» - الذى تولى الوزارة [٤٥٨هـ ١٠٦٦م] - وهو نصرانى-.. وذلك فضلا عن أبو الفرج «يعقوب بن كلس» [٣١٨ - ٣٨٠ هـ ٩٣٠ - ٩٩٠م] - وهو من أصل يهودى -.. والذى كان المعز لدين الله الفاطمى [٣١٩ - ٣٩٥هـ ٩٣١ - ٩٧٥]م يلقبه «بالوزير الأجل»!..[٢].

● ومن مظاهر هذه الموالاة والتناصر بين السلطة الفاطمية -الغريبة عن فكرية الأمة ومذهبها السُّنى -وبين الأقليات، فرض السلطة الفاطمية الاحتفال بأعياد هذه الأقليات على المجتمع كله.. ومن هذه الأعياد:

---

(١) المقريزى[اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا] جـ١ ص٢٩٧ تحقيق: دكتور محمد حلمى محمد أحمد. طبعة القاهرة سنة ١٤١٦هـ سنة ١٩٩٦م. وابن كثير [البداية والنهاية] جـ١ ص٣٢٠. طبعة القاهرة.

(٢) ابن الصيرفى [الإشارة إلى من نال الوزارة] تحقيق: عبدالله مخلص. طبعة بغداد - مصورة - وبروكلمان [تاريخ الشعوب الإسلامية] ص٣١٥ طبعة بيروت سنة ١٩٦٨م. وفيليب حتى [تاريخ العرب] ص٦٣٩ - طبعة بيروت سنة ١٩٥٣م. ودكتور محمد عبدالله عنان [الحاكم بأمر الله] ص٣٣٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م.

١- عيد النيروز..

٢- وعيد ميلاد المسيح - فى ٢٩ كيهك-..

٣- وعيد الغطاس - فى ١١ طوبة-..

٤- وعيد خميس العهد -قبل الفصح بثلاثة أيام-..

٥- وعيد الصليب -فى ١١ توت-..[١].

ولقد سجل الشاعر المصرى الحسن بن بشر الدمشقى تذمر الأمة وسخريتها من هذه السيطرة النصرانية على الدولة الفاطمية.. ومن تحكم الثالوث الموالى للنصرانية فى سلطاتها - ثالوث: الوزير «يعقوب بن كلس»، والقائد «الفضل [٤٠٠هـ ١٠١٠م] والخليفة «العزيز».. فقال ساخرا من هذه السيطرة النصرانية، المتمثلة بهذا الثالوث-:

تنصَّر، فالتنصّر دين حق ... عليه زماننا هذا يدل

وقُل بثلاثة عزّوا وجلوا ... وعطِّل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب، وهذا العز ... يز ابن، وروح القدس فضل![١]

وقال الشاعر ابن الخلال - فى استبداد النصارى بالثراء والنفوذ-:

إذا حكم النصارى فى الفروج ... وغالوا فى البغال وفى السروج

وذلّت دولة الإسلام طرا ... وصار الأمر فى أيد العلوج

فقل للأعور الدجال هذا ... زمانك إن عزمت على الخروج[٣]

أما عن استبداد أبناء الأقلية اليهودية بالثراء والنفوذ. فقال الشاعر المصرى الحسن ابن خاقان - معرّضا.. ومتهكما-:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم ... ومنهم المستشار والملك

---

(١) المقريزى[الخطط] جـ١ ص ٤٩٠ - ٤٩٥. طبعة دار التحرير - القاهرة. و[الحاكم بأمر الله] ص٣٥١.

(٢) [اتعاظ الحنفا] جـ١ ص٢٩٨.

(٣) [خطط المقريزى] جـ٢ ص١٢٣.

يا أهل مصر إنى نصحت لكم تهوَّدوا، فقد تهوَّد الفلك![1]

●●●

● ومثال ثان على «الشراكة فى الظلم» بين «الدولة» وبين كُتاب الدواوين النصارى.. الذين كانوا يستنزفون الجماهير.. حتى إذا تململت هذه الجماهير من ظلمهم، وسعت إلى الثورة عليهم، لجأت الدولة إلى «الحيل»، التى تهدئ من ثورة الجماهير، دون أن ترفع عنها مظالم هؤلاء الكتاب!..

ففى سنة ٦٨٢هـ سنة ١٢٨٣م -وفى ظل الحكم المملوكى- تململ الناس من ظلم كتاب الدواوين النصارى، فطلبت الدولة من هؤلاء الكتاب إظهار اعتناقهم للإسلام، وإلا تعرضوا للقتل!!.. فأسلموا فى الظاهر.. وظل ظلمهم قائما - لحسابهم ولحساب الحكام!-.. بل لقد زادت جرأتهم على الظلم واستنزاف العامة بعد إظهارهم هذا الإسلام!!.. وكما يقول المقزيزى:

«فلقد زاد تسلطهم بعد إسلامهم، وأظهروا من التجبر ما كانت تمنعهم نصرانيتهم من إظهاره، فكتب أحد الشعراء إلى الأمير بيدر النائب يقول:

أسلم الكافرون بالسيف قهرا وإذا ما خلوا فهم مجرمونا

سلموا من رواح مال وروح فهم سالمون لا مسلمونا![2]

لقد أظهروا الإسلام نفاقا، لتسلم أرواحهم وأموالهم.. واستمروا سوط عذاب يمتص دماء الفقراء لحسابهم ولحساب الحكام..

●●●

ومثال ثالث - من بين الأمثلة التى يوردها المقريزى على هذه «الظاهرة - القانون» الذى أقام «الشراكة الظالمة» بين الحكام الظلمة وبين كُتاب الدواوين النصارى -ما حدث سنة ٧٢١هـ سنة ١٣٢١م- على عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون [٦٨٤ - ٧٤١هـ ١٢٨٥- ١٣٤١م] عندما اندلعت موجة عاتية

(١) [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] جـ١ ص١١٣، ١١٨.

(٢) [خطط المقريزى] جـ٣ ص٥٤٥-٥٤٧.

من هدم الكنائس، أعقبتها -بعد شهر- موجة من إحراق المساجد، حتى كادت تحترق البلاد..

وكان وراء هذه الفتنة: ثورة العامة ضد استبداد كُتاب النصارى ومظالمهم فى الجبايات للأموال والضرائب والإتاوات والغرامات والمكوس.. وبعبارة المقريزى:

«إن الناس قد أبغضوا كُتاب النصارى، واتهموا الأمراء -[المماليك]- بمحاباتهم.. وطلبوا من السلطان أن يعزلهم من الديوان، وذلك لكثرة فساد النصارى، وزيادة طغيانهم، وليكون ما وقع نقمة وعذابا لهم».

وبعد أن فشلت سيوف الجند والأمراء -التى قتلت آلاف العامة والفقراء- فى إخماد الفتنة- استجاب السلطان لمطالب الجماهير «**فمنع الأمراء من استخدام النصارى، وأخرجوا من ديوان السلطان، وكتب لسائر الأعمال بصرف جميع المباشرين من النصارى. وكثر إيقاع المسلمين بالنصارى حتى تركوا السعى فى الطرقات**»!

وبعد أن سكنت هذه الفتنة -التى يقول المقريزى: «**إنه لم يُسمع بأشنع منها**»[1] - عاودت السلطة الظالمة استخدام أغنياء النصارى وكتابهم سوط عذاب لامتصاص دماء جماهير العامة والفقراء من جديد!..

وهكذا مثل هذا القطاع من أبناء الأقليات - عبر مراحل كثيرة من التاريخ الإسلامى- عندما حكموا ديار الإسلام.. وعندما منحوا ولاءهم للحكام الظلمة -بدلا من الأمة- واقتسموا مع هذه السلطة المستبدة المغانم المادية.. مثلوا:

١- سوط عذاب لجماهير الأمة فى الضرائب والجبابات- وفى الاستفزازات الطائفية..

٢- والسبب الأول فى ردود الأفعال الجماهيرية الغاضبة، التى وجهت عنفها إلى أبناء هذه الأقليات..

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الأنفال: ٢٥].

---

(١) [خطط المقريزى]. جـ٣ ص ٥٧٠ - ٥٨٣.

ولقد أصاب المستشرق الألمانى الحجة «آدم متز» كبد الحقيقة عندما أرجع أغلب الفتن الطائفية والتوترات الدينية التى عانت منها الأقليات النصرانية فى التاريخ الإسلامى، إلى تجبر أبناء هذه الأقليات من كُتاب الدواوين والقائمين على جبايات الأموال - فقال كلماته الجامعة- التى يجب أن تفسر فى ضوئها هذه الفتن والتوترات قال:

«إن أكثر الفتن التى وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر نشأت عن تجبر المتصرفين الأقباط»!(١).

وهو نفس الحكم الذى توصل إليه العلامة الإنجليزى «سيرتوماس آرنولد» [١٨٦٤ - ١٩٣٠م] عندما قال:

«إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا، بوجه الإجمال، فى ظل الحكم الإسلامى، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلا فى أوربا قبل الأزمنة الحديثة. وإن دوام الطوائف المسيحية فى وسط إسلامى يدل على أن الاضطهادات التى قاست منها بين الحين والآخر إنما كانت من صنع الظروف المحلية أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح»(٢).

وهو نفس الحكم الذى توصل إليه عالم الاجتماع والمؤرخ اللبنانى «جورج قرم» عندما قال إن من أسباب التوتر الدينى والفتن الطائفية فى التاريخ الإسلامى - والتى كانت محدودة.. وعابرة-:

«تردى الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية لسواء المسلمين، والظلم الذى يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التى وقعت فى عدد من الأمصار»(٣).

●●●

هكذا.. وفى ضوء هذه الوقائع التاريخية، نقرأ كلمات المستشرق الألمانى الحجة «آدم متز»:

---

(١) [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] جـ١ ص١١٢.

(٢) [الدعوة إلى الإسلام] ص٤٦١، ٤٦٢.

(٣) جورج قرم [تعدد الأديان ونظم الحكم] ص٢١١.

«لقد كـان النصارى هم الذين يحكمـون بلاد الإسلام.. وإن أكثـر الفتن التى وقعت بين النصارى والمسلمين قد نشأت عن تجبر المتصرفين، وكتاب الدواوين الأقباط».

ومن قبله بقرون، كلمات المقريزى:

«إن الناس قد أبغـضوا كُتـاب النصارى.. وذلك لكثـرة فسادهم، وزيادة طغـيانهم.. واتهموا الأمراء المماليك بمحاباتهم.. وطلبوا من السلطان أن يعزلهم من الديوان»!..

لقد ائتمنوا عـلى إدارة الدولة الإسلامية منذ الفتح الإسـلامى.. لكنهم منحوا ولاءهم لكثير من الحكام الظلمـة، واقتسموا معـهم المظالم والمغانم.. ولم يمنحوا ولاءهم للأمة..

وكذلك صنعـوا مع سلطان الغزو والاسـتعمـار الغربى فى العصـر الحديث.. فكانوا الأغلبية فى دوائر الإقطاع الذى استنزف دماء الفلاحين..

وكانوا المرابين الذين امتصوا دماء الفقراء..

وكانوا السماسرة فى المعاملات المالية التـى حرمتها الديانات السماوية الثلاث.. وكانوا مدراء الشركات الرأسمالية التى نهبت ثروات البلاد..

صنعوا ذلك مع الغزاة الغـربيين.. كما صنعوه مع الحكام الظلمة فـى كثير من فترات تاريخ الإسلام!.

ولذلك جاء وصفهم من قبل المؤرخين -القدماء والمحدثين- من «المقريزى» إلى «آدم متز»- بأوصاف: «الظلم.. والتجبّر.. والتسلط.. والطغيان.. والفساد»!!

●●●

وبعد..

فإذا نحن نظرنا إلى خارطة العالم الإسلامى - فى هذه اللحظات التى نكتب فيها هذه الصفحات- فإننا سنجد:

- مئات الألوف من الجيوش الغربية الغازية للعديد من أوطان عالم الإسلام.. وهى جيوش فاقت بما لا يقارن نظائرها التى غزت عالم الإسلام فى القرن التاسع عشر - ذروة المد الإمبريالى الغربى فى عالم الإسلام-!.
- وسنجد حشود الأساطيل والبوارج وحاملات الطائرات الغربية التى تحتل البحار والمحيطات الإسلامية- تلك التى كانت بحيرات إسلامية خالصة، عندما كانت الحاكمية للشريعة الإسلامية.. وعندما كان الجهاد عقيدة لفرسان الإسلام!-..
- وسنجد مئات القواعد العسكرية الغربية، التى تغطى أغلب بقاع ديار الإسلام.. تلك البقاع التى سبق وحررها صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الروم والفرس بدمائهم الزكية.. وسبق وحررتها دول الفروسية الإسلامية من الغزوة الصليبية القديمة..

سنجد هذه الجيوش.. وهذه الأساطيل.. وهذه القواعد العسكرية الغربية.. تحتل الأرض.. وتحرس النهب الإمبريالى المنظم لثروات الأمة الإسلامية.. وتنشر التغريب للعقل المسلم.. وتفرض التبعية على نظم العجز والفساد التى تعيش فى ظلال حراب الاستعمار..

سنجد ذلك كله، فى الوقت الذى لا يوجد فيه للعالم الإسلامى بالغرب سفينة صيد أو «جندى مرور»!..

- وسنجد آلاف المنصّرين الذين ينتشرون فى ربوع العالم الإسلامى، والذين دخلوا فى ركاب الجيوش الغازية - للعراق.. وأفغانستان.. والصومال - وفى حماية القواعد العسكرية الغربية-.. والذين يسرحون ويمرحون فى كل بلاد الإسلام.. والذين ينسقون تنصير المسلمين مع الكنائس المحلية.. فى ظل تفريط نظم التبعية

والعجز والفساد.. ويستغلون حاجات الفقراء والمساكين الذين يبيعون عقائدهم لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء.. بينما ثروات الأمة، وفوائضها النقدية توظف فى دعم اقتصادات الأعداء!.. وفى صفقات السلاح الذى لا هدف من وراء شرائه سوى العمولات وتشغيل مصانع السلاح فى الرأسمالية الغربية المتوحشة.

- وسنجد النخب العلمانية، التى صنعها الغرب الاستعمارى على عينه، وضرب عقولها وفق مناهجه، وأعطاها مفاتيح المؤسسات فى الدول الإسلامية، تشارك -لقاء الفتات- فى التفريط بالاستقلال الحضارى والسياسى.. والتفريط فى ثروات الأمة.. والمسخ والنسخ والتشوية لهوية الأمة - هوية العروبة والإسلام-..

نعم... سنجد كل هذه الابتلاءات التى تكاد أن تعم وتغطى بقاع عالم الإسلام.. ولكننا سنجد -كذلك-:

- المقاومة الباسلة، التى تحركها عقائد الإسلام فى الجهاد والفداء والاستشهاد، تمارس دفن أحلام الغزاة المعاصرين على أرض العراق وأفغانستان والصومال.. وتحاصر «أم القواعد الاستعمارية» -الكيان الصهيونى- على أرض فلسطين..

- وسنجد الصحوة الإسلامية، التى أعادت وتعيد الأمة إلى ذاتها الإسلامية.. والتى يسميها الغرب «الأصولية الإسلامية».. التى عرّفها الرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون» [١٩١٣ - ١٩٩٤م]- وهو مفكر استراتيجى- فقال:

«إن هؤلاء الأصوليين الإسلاميين هم المصممون على:

- استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضى..

- والذين يهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية..

- وينادون بأن الإسلام دين ودولة..

- وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضى، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار»![1]..

---

(١) نيكسون [الفرصة السانحة] ص ١٤٠ - ترجمة: دكتور أحمد صدقى مراد. طبعة دار الهلال - القاهرة سنة ١٩٩٢م.

سنجد هذه الصحوة الأصولية الإسلامية -التى استقطبت جماهير الأمة- قد أصبحت أعظم ظواهر العصر الذى نعيش فيه.. ونبذت نماذج التحديث الغربية، التى أصابها الإفلاس..

● وسنجد الإسلام - دين الفطرة - الذى ينفق المنصّرون الأموال.. والجهود.. والأعمار، محاولين إطفاء نوره، يتمدد فى عقر دارهم، وارثا أرض كنائسهم البوار.. حتى لتصيح رموز هذه الكنائس المفلسة - مع الأحزاب الفاشية.. واليمين الدينى والسياسى - فى المظاهرات والمؤتمرات-: **«أوقفوا أسلمة أوربا وأمريكا»!**.. وحتى ليعلن بابا الفاتيكان -بنديكتس السادس عشر-: **«أنه يخشى أن تصبح أوربا جزءا من دار الإسلام فى القرن الواحد والعشرين»!**..[1].

نعم.. سنجد هذه المعالم فى حاضر عالمنا الإسلامى.. سنجد الآلام.. والآمال.. لنتذكّر ونذكر قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦، ٣٧].

●●●

(١) جوزيف رانزنجر، مارسيلوبيرا [بلا جذور: الغرب. النسبية المسيحية. الإسلام] طبعة نيويورك سنة ٢٠٠٦م.

● إن التاريخ المكتوب - فى علاقة الغرب بالشرق- منذ الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م] وحتى الآن قد بلغ أربعة وعشرين قرنا - من القرن الرابع قبل الميلاد حتى القرن الواحد والعشرين بعد الميلاد..

● وإن الغزو الغربى للشرق قد استغرق سبعة عشر قرنا من هذه القرون الأربعة والعشرين!!..

- عشرة قرون قبل ظهور الإسلام - من الإسكندر، فى القرن الرابع قبل الميلاد، وحتى هرقل [٦١٠ - ٦٤١م] فى القرن السابع للميلاد..

- وقرنان من الحروب والحملات الصليبية -التى مثلت أطول حرب عالمية غربية على الشرق الإسلامى فى العصور الوسطى..

- وأكثر من خمسة قرون هى عمر الغزوة الصليبية الغربية الحديثة، التى بدأت منذ إسقاط «غرناطة» -بالأندلس- [٨٩٧هـ ١٤٩٢م] وحتى هذه اللحظات!.. ولقد احتفل الغرب بمرور خمسمائة عام على اقتلاعه الإسلام من غربى أوربا -الأندلس- بدورة أولمبية فى برشلونة.. حيث تم اقتلاع الإسلام.. وحيث بدأت هذه الغزوة الصليبية الحديثة.. حدث ذلك سنة ١٩٩٢م.. لينعش ذاكرة شعوبه بهذا التاريخ!..

وفى نفس عام هذا الاحتفال - سنة ١٩٩٢م- أقام الغرب الصليبى حرب البوسنة والهرسك، لاقتلاع الإسلام من وسط أوربا!!.. وجلست أوربا وأمريكا «تتفرج» على المجازر والمقابر الجماعية التى أقامها الصرب للمسلمين البوشناق.. ووسائل الإعلام العالمية تنقل تصريحات وزير الإعلام الصربى، التى يقول فيها:

«إننا نمثل طلائع الحرب الصليبية الجديدة»!..

● وإذا كان الوعى بالتاريخ هو سلاح من أمضى الأسلحة فى صناعة التاريخ.. فإننا نرجو لكتابنا هذا أن يكون طاقة خلاقة فى الوعى بهذا التاريخ.. تاريخ [الغرب والإسلام..] وما حواه هذا التاريخ من غزو.. ونهب.. وتزييف لصورة الإسلام.. وغواية للأقليات..

- إن للغزو الغربى المعاصر لعالم الإسلام جذورا ضاربة فى التاريخ..
- وإن للنهب الاستعمارى المعاصر لثروات عالم الإسلام جذورا ضاربة فى التاريخ..
- وإن للتزييف الغربى المعاصر لصورة الإسلام جذورا ضاربة فى التاريخ..
- وإن لغواية الأقليات، ولخيانات قطاعات منها جذورا ضاربة فى التاريخ..
- وإن للجهاد الإسلامى - الذى نواجه به هذه التحديات المعاصرة - هو الآخر جذورا ضاربة فى التاريخ..

وإن رسالة هذا الكتاب هى إنعاش الذاكرة الإسلامية لتعى هذه الجذور التاريخية.. لشحذ الهمة.. واستجماع العزيمة، لكسر شوكة هذه التحديات المعاصرة.. كما صنع سلفنا الصالح.. الذين تحدث باسمهم صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ ١١٣٧ - ١١٩٣م] إلى الملك الصليبى «ريتشارد قلب الأسد» [١١٨٩ - ١١٩٩م] فقال له:

«.. وأما هذه الأرض، فلن يُقام لكم فيها حجر طالما استمر الجهاد».

تلك هى الرسالة التى قصدنا إليها من وراء صفحات هذا الكتاب..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

●●●